مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٢) نيسان. لسنة ٢٠٢٦م -١٤٤٧هـ

من اللطائف الدلالية لحروف المعاني في التعبير القرآني

الباحث. عباس هادي داود أ.م.د خالد خضير عباس
جامعة سومر / كلية التربية الاساسية / قسم اللغة العربية
b6792957@gmail com

الملخص

لا يخفى ما لحروف المعاني من أهمية كبيرة في ربط الجمل، وقد حملت لطائف تعبيرية لها دور هام في توضيح الأغراض، وكشف المعاني؛ لذا كانت محط اهتمام العديد من العلماء والباحثين؛ للوقوف على الاهداف المنشودة من خلالها، لا سيما في القرآن الكريم.

فقد كشفت حروف المعاني عن حقائق ونكت، لا يمكن التوصل اليها إلا من خلال تلك الحروف، والسبب في ذلك يعود الى استعمال حروف المعاني في اللغة العربية، في المواضع المناسبة لها، ولا يكون هذا الاستعمال اعتباطا وإنما يُتوخى الدقة في ايضاح المرامي والاهداف، ومن يبحث في القرآن الكريم يقف على العديد من اللطائف التعبيرية العميقة.

اما عن استعمال حروف المعاني في القرآن الكريم، فإننا لو اردنا أن نأتي بحرف مكان حرف آخر لما استقام المعنى، ولكن في احيان عدة نلمح حرفا خرج عن معناه العام المتعارف عليه لدى علماء اللغة، ويحل في الاستعمال مكان حرف آخر.

لذا تكلم العلماء في هذه المسالة الدقيقة، وعدوها اللغوي؛ أي أن يتضمن حرف معنى حرف آخر، ويمكن التوصل الى معرفة، وفهم هذه الظاهرة في القرآن الكريم من خلال ملاحظة السياق الدلالي في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: (الدلالة، حروف المعاني، اللطائف القرآنية، التضمين).

The Subtle Semantic Features of Particles in Qur'anic Expression

Researcher: Abbas Hadi Dawood
Supervisor: Dr. Khalid Khudair Abbas
University of Sumer / College of Basic Education / Department of Arabic Language
b6792957@gmail.com

Abstract

The significant importance of particles in connecting sentences is undeniable. They possess subtle expressive nuances that play a crucial role in clarifying purposes and

revealing meanings. Therefore, they have been the focus of attention for many scholars and researchers seeking to understand their intended objectives, particularly in the Holy Qur'an.

Particles reveal truths and subtleties that can only be accessed through them. This is due to their precise use in the Arabic language, employing them in appropriate contexts. This usage is not arbitrary but rather aims for accuracy in clarifying intentions and goals. Anyone who studies the Holy Qur'an will discover many profound expressive nuances. Regarding the use of particles in the Holy Quran, if we were to replace one particle with another, the meaning would be lost. However, on several occasions, we observe a particle that deviates from its general, established meaning according to linguists, and in usage, it replaces another particle.

Therefore, scholars have discussed this subtle issue, which they have termed linguistic; namely, that a particle can encompass the meaning of another. Understanding this phenomenon in the Holy Quran can be achieved by observing the semantic context within the Quran.

Keywords: (Semantics, Particles, Quranic Subtleties, Implication)

الحرف في اللغة

قال الازهري (ت ٣٧٠هـ) الحرف هو كل " كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني فاسمها حرف، وإن كان بناؤها بحرفين أو فوق ذلك، مثل: حتى وهل وبل ولعل"(الازهري،٢٠٠١م،ج٥ ، ص١٠).

وجاء في المحكم أن " الحرف من الهجاء معروف. والحرف: الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل، كعن وعلى ونحوهما"(ابن سيده ، ٢٠٠٠م، ج ٣، ص٣٠٦).

والحرف في لسان العرب له معانٍ عدة :" الطرف والجانب، وبه سمي الحرف من حروف الهجاء. وروى الأزهري عن أبي العباس أنه سئل عن قوله نزل القرآن على سبعة أحرف فقال: ما هي إلا لغات. قال الأزهري: فأبو العباس النحوي وهو واحد عصره قد ارتضى ما ذهب إليه أبو عبيد واستصوبه، قال: وهذه السبعة أحرف التي معناها اللغات غير خارجة من الذي كتب في مصاحف المسلمين التي اجتمع عليها السلف المرضيون والخلف المتبعون، فمن قرأ بحرف ولا يخالف المصحف بزيادة أو نقصان أو تقديم مؤخر أو تأخير مقدم، وقد قرأ به إمام من أئمة القراء

المشتهرين في الأمصار، فقد قرأ بحرف من الحروف السبعة التي نزل القرآن بها" (ابن منظور ،١٤١٤هـ ، ج٩ ، ص٤١).

حروف المعاني

وأما حد حروف المعاني ،فهو" الذي يلتمسه النحويون، فهو أن يقال: الحرف ما دل على معنى في غيره، نحو من وإلى وثم وما أشبه ذلك. وشرحه أن "من" تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدل على تبعيض غيرها، لا على تبعيضها نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية، كانت غاية غيرها. وكذلك سائر وجوهها. وكذلك "إلى" تدل على المنتهى، فهي تدل على منتهى غيرها، لا على منتهاها نفسها، وكذلك سائر حروف المعاني"(الزجاجي، ١٩٩٦م،ص٥٤). وجاء في الكافية " الحرف: ما دل على معنى في غيره ومن ثم احتاج في جزئيته إلى اسم أو فعل".

(ابن الحاجب، ٢٠١٠م، ص ٥١)

يقول احمد الحازمي في تعريف الحرف هو "ما ليست له علامة: ليست له علامة وجودية، وليس المراد نفي العلامة مطلقا لا وجودية ولا عدمية نقول: ليس هذا المراد بل المراد ليست له علامة وجودية، وإنما علامته عدمية، وهي عدم قبول علامة الأسماء" (الحازمي،٢٠١٠م ، ص٨١).

لقد حدد العلماء عددا من العلامات التي يتوصل بها الى التفرقة بين الاسماء والافعال، وهي علامات وجودية، أي ظاهرة بينة، وامتاز الحرف عن الاسماء والافعال بكونه لا يقبل العلامات الدالة الظاهرة، فهو معرف بعدم قبول تلك العلامات، وهذا المراد من علامته عدمية.

ويعرفه محمد عيد بأنه: " هو ما لا يظهر معناه في نفسه، بل مع غيره "(عيد ،١٩٧١م، ص١١).

وهناك رأي لأحد الدارسين يقترح فيه تعريفا للحرف فيقول هو: " كلمة لا محل لها من الاعراب لها معنى عام في نفسها في حالة الافراد، يتحدد ويتوضح ويكتمل في حالة التركيب؛ اي عند انتظامها في جملة"(بودانة، ٢٠١٨م، ص ٣٨٩)، وجاء في تعريف حروف المعاني أنها " الحروف التي تدخل على الاسماء والافعال لتغيير معنى ما تدخل عليه، او استحداث معنى جديد لم يكن فيه ، فاذا انفردت وحدها لم تدل على ذلك "(الفقيه،شبر،٢٠٠٨م،ص٢٣١).

مما تقدم يتضح ان حد الحرف عند القدماء، هو ما لا معنى له في نفسه، ولم يخرج المحدثون عن هذا الحد.

والحروف نوعان هما: حرف مبنى، وحرف معنى

فحرف المبنى: ما كان من اصل بنية الكلمة، واما حرف المعنى : هو الحرف الذي لا يفهم معناه الا اذا انتظم في جملة.

وتنقسم حروف المعاني على قسمين هما

أ – حروف غير عاملة: وهي الحروف التي لا تؤثر في غيرها؛ أي لا تعمل الاعراب في غيرها

ب– الحروف العاملة: وهي الحروف التي تحدث تغييرا اعرابيا لغيرها من الكلمات، ومنها حروف الجر ، ونواصب الفعل المضارع، والاحرف المشبهة بالفعل ، ولا النافية للجنس، وحروف الجزم التي تجزم فعلا واحدا (حسن ،عباس،ج٢ ،ص٤٣١).

إن حروف المعاني بما تحمله من لطائف تعبيرية، لها دور مهم في توضيح الاغراض، وكشف المعنى، فضلا عن ربط الجمل، والافكار؛ لذا كانت محط اهتمام العديد من العلماء، والباحثين للوقوف على الاهداف المنشودة من خلالها، لا سيما في القرآن الكريم.

جاء في كتاب الجنى الداني في حروف المعاني:"فإنه لما كانت مقاصد كلام العرب، على اختلاف صنوفه، مبنيا أكثرها على معاني حروفه، صرفت الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها. وهي مع قلتها، وتيسر الوقوف على جملتها، قد كثر دورها، وبعد غورها، فعزت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعان إلا لمن يعانيها"(المرادي،١٩٩٢م،ص١٩).

ويعبر احد الباحثين عن هذا المعنى بقوله: "لقد اخترنا دراسة حروف المعاني في هذا البحث، وذلك لأن أن استعمال حروف المعاني في اللغة العربية، ووضعها في مواضعها من الأمور الدقيقة المغزى، اللطيفة المأخذ، حيث أن للحروف دورها في إبراز المقاصد والأغراض، وإيضاح المرامي والأهداف"(الجبوري ،عبير،ص٣٩٤).

وتتضح الاهمية البالغة التي تحظى بها حروف المعاني في النصوص المتقدمة، فصاحب (الجنى الداني) يرى أن الهمم قد صرفت الى تحصيلها، وتحصيل المعرفة اللازمة من اجل الوقوف على

حقائقها ومفاهيمها، ومن يبحث في القرآن الكريم يقف على العديد من اللطائف التعبيرية ذات المعاني العميقة، والدلالة البعيدة مما لايستطيع أن يحصيه، أو يقف على نهايته أحد من البشر " فقد استعمل القرآن هذه الحروف في أخص مواضعها، فلم يوجد في موضع إلا ولها معنى طريف، ولم تحذف منه إلا وفي حذفها غرض مقصود، وهدف مراد، وقد استخدم القرآن هذه الحروف على قدر الضرورة، بدون زيادة مملة، أو نقصان مخل، ولذلك جاء كل حرف في موضعه اللائق به، بحيث لا يستغنى عنه، أو يستبدل به غيره" (الجبوري،عبير ،ص٣٩٤).

وهنا نجد ان القرآن الكريم قد استعمل هذه الحروف استعمالا دقيقاً، فلو اردنا ان نأتي بحرف مكان حرف آخر لما استقام المعنى الذي اعطاه ذلك الحرف، وهذا وراد في كل الكلمات الواردة في القرآن الكريم.

حروف المعاني في القرآن الكريم وآراء العلماء فيها

مما يتبادر الى الذهن عند ذكر حروف المعاني عدة مصطلحات جاء بها العلماء منها – التضمين – التناوب – التحولات في حروف المعاني(الهتاري ،٢٠١٤م،٣٦٣٥).

ولقد كثرت الدراسات التي تطرق الباحثون فيها الى هذه المصطلحات، ولم يغفل عنها العلماء من قدماء ومحدثين، وإن اختلفت التسمية، فقد افرد لها ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) بابا في كتابه تأويل مشكل القرآن اسماه: باب دخول حروف الصفات مكان بعض(الدينوري،ابن قتيبة، ص٢٩٨) ،وافرد ابو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) فصلا في كتابه سر العربية تحت عنوان : مجمل في وقوع حروف المعنى مواقع بعض (الثعالبي ،ابو منصور ، ص ٢٤٨).

وهنا لابد من طرح سؤال جوهري، هل اتفقت آراء علماء اللغة العربية من قدماء ومحدثين حول هذه الظواهر اللغوية ، او سُلم بها تسليما تاما، ام كان هنالك خلاف بين العلماء؟

للجواب عن السؤال السابق نقول :هناك من العلماء من يرى ان الحرف له معنى واحد لايتغير ، وقد تأتي له معان أُخر، ولكنها بحاجة الى تأويل ، وتذهب طائفة من العلماء الى التنوع في معنى الحرف الواحد (عواد، محمد حسن، ص١٩٨٢م،ص١٠-١١) .

وجاء في هذا المعنى في الجنى الداني ما يخص معنى حرف (الباء) إذ " ردَّ كثير، من المحققين، سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق، كما ذكر سيبويه. وجعلوه معنى لا يفارقها، وقد ينجر معه معان أخر. واستبعد بعضهم ذلك، وقال: الصحيح التنويع. "(المرادي،١٩٩٢م،ص ٤٦) .

و فكرة التناوب بين حروف المعاني هي فكرة قال بها الكوفيون، "نيابة الباء عن غيرها من حروف الجر هو جار على مذهب الكوفيين، ومن وافقهم" (المرادي،١٩٩٢م،ص ٤٦).

اما المذهب الاخر وهو مذهب البصريين، فيرى فكرة تضمين حروف المعاني معنى حرف آخر بعد ان يأتوا بتأويل يقبله اللفظ (عواد، محمد حسن، ص١٩٨٢م،ص١١-١٢)، وفي هذا المعنى يقول المرادي (ت ٧٤٩هـ) "ومذهب البصريين إبقاء الحرف على موضوعه الأول، إما بتأويل يقبله اللفظ، أو تضمين الفعل معنى فعل آخر، يتعدى بذلك الحرف. وما لا يمكن فيه ذلك فهو من وضع أحد الحرفين موضع الآخر على سبيل الشذوذ "(المرادي،١٩٩٢م،ص ٤٦).

ومما تقدم ذكره نجد أننا أمام ظاهرة في اللغة العربية، الا وهي ظاهرة التضمين او التناوب بين حروف المعاني، اقرها العلماء من قدماء ومحدثين، وقد اوردوا لها شواهد من القرآن الكريم، ولقد سعى علماء العربية الى البحث عن المضامين الدلالية لهذه اللطائف القرآنية التي جاءت في سياق الآيات المباركة، وفي ما يلي بعض النماذج التطبيقية لما تم ذكره.

المبحث الاول: لطائف حروف الجر في القرآن الكريم

من اللطائف القرآنية لحروف الجر في القرآن الكريم مجيئ بعض الآيات بخلاف الظاهر المتعارف عليه بحسب القواعد التي تواضع عليها اهل الاختصاص، فقد ينوب حرف عن حرف آخر، او يعدى فعل بحرف آخر غير الذي اشتهر ان يتعدى به.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (طه :٧١)

الشاهد في الآية قوله تعالى "لاصلبنكم في جذوع النخل" والمعروف أن الصلب يكون على ظاهر الجذع، وتجيء في بمعنى على(ابن منظور،١٤١٤هـ، ج١٥،ص١٦٧)، وهذا المعنى يستفاد من حرف الجر (على) لأن من المعاني التي وضع لها حرف الجر (على) الاستعلاء، ولكن جاء في

الآية المباركة استعمال حرف الجر (في) ، وهذا يطرح سؤال مفاده: هل ان الصلب يكون في داخل الجذع ام يكون على ظاهر الجذع ؟

جاء في كتاب معاني النحو: "ومذهب جمهور البصريين أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض، إلا شذوذا أما قياسا فلا. وما أوهم ذلك فهو مؤول، أما على التضمين، أو على المجاز، كما في قوله تعالى ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ (طه: ٧١)، فإن الكوفيين ذهبوا إلى أن (في) بمعنى (على)، وذهب البصريون إلى أنه ليس بمعنى (على) ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء فهو من باب المجاز" (السامرائي ،فاضل ، ٢٠٠٠م ،ج٣،ص٧).

وهنا انقسم كل من البصريين والكوفيين على مذهبين

المذهب الاول

مذهب البصريين الذي يرى ان حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض، وعلى هذا تدخل هذه الآية في باب المجاز.

اما المذهب الثاني

فهو مذهب الكوفيين الذي يرى ان حرف الجر (في) تضمن معنى حرف الجر (على).

وقد تباينت آراء العلماء وتفسيراتهم لما جاء في هذه الآية الكريمة

يقول الطبري (ت ٣١٠ هـ) " ولأصلبنكم على جذوع النخل، كما قال الشاعر

هُمْ صَلَبُوا العَبْدِيّ فِي جِذعِ نَخْلَةٍ ... فَلا عَطَسَتْ شَيْبان إلا بأجْدَعا "(الطبري ،٢٠٠٠م،ج١٨،ص٣٣٩)، وجاء بهذا الشاهد من شعر العرب للدلالة على جواز التناوب في حروف الجر.

ويذكر صاحب الكشاف ما مضمونه ان المصلوب تمكن في الجذع، فكأنه اصبح والجذع شيء واحد(الزمخشري،١٤٠٧هـ،ج٣،ص٧٢-٧٣)، وتعد هذه هي العلة الموجبة لذلك "قيل فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " (الزمخشري،١٤٠٧هـ،ج٣،ص٧٣).

ويرى العكبري (ت ٦١٦ هـ) أن (في) هنا على بابها اي على المعنى التي وضعت له لأنه يرى ان الجذع يحتوي على المصلوب "فِي هُنَا عَلَى بَابِهَا؛ لِأَنَّ الْجِذْعَ مَكَانٌ لِلْمَصْلُوبِ وَمُحْتَوٍ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: هِيَ بِمَعْنَى عَلَى" (العكبري،ج٢، ص٨٩٧).

جاء في كتاب التضمين النحوي "وذكر الشوكاني: أي على جذوعها كقوله تعالى: (أم لهم سلم يستمعون فيه) أي عليه ومنه قول سويد بن أبي كاهل: وهم صلبوا ... وذكر السيوطي: (في) بمعنى (على) تفيد الاستعلاء وأكد الزركشي: أن المصلوب لا يجعل على رؤوس النخل، وإنما يصلب في وسطها فكانت (في) أحسن من (على). ونص أبو عبيدة وابن قتيبة والفراء و الآمدي: على أنها بمعنى (على) " (فاضل، محمد نديم، ٢٠٠٥، ج٢ ،ص ٥٩) .

وهناك رأي لسليمان بن عمر المعروف بالجمل (ت ١٢٠٤هـ) يرى فيه احتمال وقوع الفعل على حقيقته، فيكون الصلب في داخل الجذع بعد أن يحفر ،ويعود معقبا على كلامه، فيقول ويحتمل أن يكون مجازا في وضع حرف مكان حرف هذا الوجه الاول، اما الوجه الثاني، فيرى كأن الجذع اشتمل على المصلوب، ويرجح المجاز على الحقيقة (الجمل ،١٩٢٩م،ج٣،ص١٠١).

يقول عبد الرحمن حبنكة الميداني" بل الأقرب أن يكون الكلام جاريا على طريقة التضمين، وهو هنا تضمين فعل لأصلبنكم معنى فعل آخر يتعدى بحرف الجر في "فعدي تعديته، وأصل الكلام : لأصلبنكم على جذوع النخل ولأثبتنكم فيها بالمسامير التي تدخل في الجذوع، فنابت التعدية بحرف الجر" في "مناب ذكر الفعل الذي حذف، وضمن الفعل المذكور معناه".

(الميداني ،حنبكة،١٩٩٦م،ج٢،ص٢٣٩)

فالرأي المتقدم يقترح ان هناك فعلا يتعدى بـ (في) الا وهو (لأثبتنكم بالمسامير)، وهنا تبرز جمالية الايجاز في التعبير القرآني، فجاء بحرف الجر (في) ليعبر عن معان لم يكن من الممكن ان يعبر عنها بحرف الجر (على)، والدلالة بحرف الجر (في) على شدة العذاب لأنهم سيثبتون بالمسامير على تلك الجذوع ، فيصبحون كأنهم جزء من تلك الجذوع ، وهذا ما لا يتحصل معناه اذا عدي الفعل بحرف الجر (على).

وجاء في سورة سبأ قوله تعالى ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ (سبأ :٢٤).

الشاهد في الآية المباركة هو الانتقال من حرف الجر (على) الى (في) ، فذكر الله سبحانه (لعلى هدى)، ثم اتم قوله تعالى بقوله (في ضلال).

جاء في الكشاف، وهو من جميل الملاحظة لسر من اسرار هذه الآية المباركة قوله " فإن قلت: كيف خولف بين حر في الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه. وفي قراءة أبى: وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين "(الزمخشري ،١٤٠٧هـ،ج٣،ص٥٨٢).

فقد شبه الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، صاحب الهدى كراكب الفرس في استعلائه على ظهرها، اما صاحب الضلال كأنه منغمس في الضلال.

ويعبر فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) عن هذه الآية المباركة بأنها من الحكمة الالهية بقوله : " لعلى هدى أو في ضلال مبين ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلي، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في" (الرازي،١٤٢٠هـ،ج٢٥،ص٢٠٥).

وجاء في انوار التنزيل للبيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، والسبب في اختلاف الحرفين "لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يرى شيئاً أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصى منها "(البيضاوي،١٤١٨هـ،ج٤،ص٢٤٧).

و يعضد هذا الرأي ما جاء به ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) في تفسيره لسورة البقرة " في أداة على سر لطيف. وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق .كما قال {تعالى} في حق المؤمنين" (الجوزية، ابن القيم،١٤٠٧هـ،ص٢٠) ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) .

هنا يشعر المتلقي للآية المباركة ان المؤمن يكون على المحجة البيضاء ظاهر الامر، فشبه الهدى بالطريق البين الواضح الذي لايشوبه شائبة، ولا يتداخل معه الباطل.

و يوجه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) مجيء حرف الجر (على) بقوله :" إن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضا. وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته"(الجوزية، ابن القيم،١٤٠٧هـ،ص٢٠).

اما حين يتحدث الله سبحانه وتعالى عن اهل الضلال ،فأنه سبحانه اتى بحرف الجر (في) ، للدلالة على ان اهل الباطل ركسوا في الضلال " وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتي فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه "(الجوزية، ابن القيم،١٤٠٧هـ،ص٢٠).

وفي سياق هذه الآية الكريمة ومثيلاتها نجد القرآن الكريم ، وهو يصور الحال تصويرا واضحا يصل الى اذهان السامعين، فالقرآن الكريم لاينقل كلاما مسموعا فقط وإنما ينقل صورة حية بكل تفاصيلها، ويصورها في ذهن السامع ليرسم في مخيلته اهل الحق في ارتفاع مكانتهم، واهل الباطل في انحطاط مكانتهم و اركاسهم في الموبقات.

قال تعالى ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الانبياء :٧٧).

الشاهد في الآية المباركة قوله تعالى (نصرناه من القوم)، والمعلوم ان النصر يكون على وليس من ، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥٠) هذا في حال النصر على الاعداء، اما اذا اراد ان يخبرنا الله سبحانه وتعالى بنجاة احد الانبياء فيقول عز من قال ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (الانبياء : ٨٨).

وعلى هذا جاء في القرآن الكريم ان النصر عدي بحرف الجر (على)، والنجاة بحرف الجر (من) ، ولكن ما جاء في الآية المباركة (ونصرناه من القوم)، يدعو الى التفكر والتدبر في هذه الصياغة البديعة.

يقول ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) " وَنَصَرْنَاهُ لما كان جل نصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يديه بل بأمر أجنبي منه حسن أن يكون «نصرناه من» ولا يتمكن هنا «على» كما يتمكن في أمر محمد صلى الله عليه وسلم "(ابن عطية،١٤٢٢هـ،ج٤،ص٩٠).

قال العكبري (ت ٦١٦هـ) " قوله تعالى: (ونصرناه) : أي منعناه من أذاهم. وقيل: «من» بمعنى على " (العكبري،ج٢،ص٩٢٣) .

يقول الثعالبي (ت ٨٧٥هـ) " وقوله سبحانه في نوح- عليه السلام-: ونصرناه من القوم ... الآية، لما كان جل نصرته النجاة، وكانت غلبة قومه بأمر أجنبي منه- حسن أن يقول: «نصرناه من» ، ولا تتمكن هنا «على» . قال ص: عدي «نصرناه» ب «من» لتضمنه معنى: نجينا، وعصمنا، ومنعنا. وقال أبو عبيدة: «من» بمعنى «على»" (الثعالبي، ابو منصور،٢٠٠٢م،ج٤ ،ص٩٣).

" وقيل: أي نصرناه عليهم ف (من) بمعنى (على). وقال بعضهم: إن النصر يتعدى بـ (على) و (من). ففي أساس البلاغة نصره الله تعالى على عدوه ونصره من عدوه وفرق بينهما: بأن المتعدي بـ (على) يدل على مجرد الإعانة والمتعدي بـ (من) يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار." (فاضل ،محمد نديم ،٢٠٠٥،ج١،ص٣٨٠) .

جاء في الجامع لإعجاز القرآن: " {ونصرناه}: أي: نوح من القوم الذين كذبوا بآياتنا، ونصرناه من القوم ولم يقل: على القوم، نصرناه من القوم تعني: نصرا كان من عند الله سبحانه من دون قتال أو معركة أو حرب، ولو قال: ونصرناه على القوم لكان ذلك يعني أنه كانت هناك معركة وقتال بينه وبين قومه؛ لأن كلمة على تعني العلو والغلبة. وقال نصرناه، ولم يقل نجيناه؛ لأن نجيناه تعني: النجاة فقط له، وأما نصرناه: تدل على نجاته من عقاب خصمه؛ أي: نجيناه وأغرقنا خصمه " (الهلال، محمد، ٢٠٢٢م،ج١٧،ص٧٧).

ومما تقدم من تفسيرات العلماء، وتعليقات الباحثين، نصل الى لطيفة من لطائف القرآن الكريم ؛ ألا وهي أن اصل مجيء حرف الجر(من) اضاف معنى آخر الى الفعل نصر وهو النجاة من الاعداء ، وانزال العقوبة بهم.

والامر الثاني اراد الله سبحانه وتعالى ان يخبرنا ان ذلك النصر تحقق بلا قتال، فلو كان النصر المتحقق بقتال مباشر، لقال تعالى(ونصرناه على)، ولكن لما تحقق النصر من خلال جهة خارجية ؛ اي على جهة الاعجاز الالهي قال تعالى (ونصرناه من) ، والله اعلم

و من ذلك قوله تعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق : ١٩).

الشاهد في الآية المباركة قوله تعالى ﴿ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ،استعمل حرف الجر (من) مع الفعل حاد، وحين نطالع المعجمات اللغوية نجد أن الابتعاد عن شيء معين، والميلان عنه يأتي معه حرف الجر (عن) نحو (زيخ) و(راغ) (ابن دريد، ١٩٨٧م،ج١،ص٥٩٧)، والسبب في هذا الميلان هو الخوف من شيء ما(ابن القطاع، ١٩٨٣م، ج١،ص٢٦٥).

جاء في خطبة لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) "فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد"(عبده ،محمد ،١٩٧١م،ص٩٥-٩٦) ، ويقول ابن ابي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ) أن هذه الكلمة تقال للهارب الفار(المعتزلي ،ابن ابي الحديد،١٩٥٩م،ج٢،ص١١١)، وكأن الهارب من الحرب يسألها أن تتنحى عنه ، ويطلب منها أن تميل عنه وتنحرف (عبده ،محمد ،١٩٧١م،ص٩٦) .

اجمع اصحاب المعجمات أن حرف الجر (عن) يستعمل مع الفعل حاد(الفيومي،ج١،ص١٥٨)، ولكن جاء في القرآن الكريم كما تقدم في الآية المباركة استعمال حرف الجر (من) مع الفعل حاد ، و المعنى أنك ايها الانسان كنت دائم الهرب من هذه اللحظة (سكرة الموت)، أن بمعنى أن الانسان لا يميل ، ويبتعد عن الموت ؛ لأن الموت مكتوب عليه، فهو ملاقيه عاجلا ام آجلا(الطبري،٢٠٠٠م،ج٢٢،ص٣٤٧).

و يرجح أن الآية تحتمل وجهين : الاول "أي: أتاك ما كنت تكره مجيئه وتنكر، ولم تؤمن به، وهو البعث ويوم القيامة الذي ينكرونه ويكرهونه.

والثاني: يحتمل الموت نفسه؛ أي: أتاك ما كنت تكره وتفر منه؛ إذ هم كانوا يكرهون الموت ويفرون منه"(الماتريدي،٢٠٠٥م،ج٩،ص٣٥٦)، يعيش الانسان وقد غره طول الامل في العيش ، وما أن يخطر على باله الموت حتى يفر، ويحيد بذهنه الى اطول فترة زمنية ، ويحذر الموت الذي هو ملاقيه (ابن عطية،١٤٢٢هـ،ج٥،ص١٦١).

جاء في الحديث الشريف قول النبي محمد (ﷺ) " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب، تطلبه الأرض بدين، فجعل يسعى، حتى إذا أعيى وانتهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب ، ديني؟ فخرج، وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه، فمات" (الطبراني،ج٧،ص٢٢٢).

و يذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء : ٧٨).

يفهم من السياق المتقدم أن (حاد عن) تعني الميلان والابتعاد، وهذا الابتعاد ربما يكون لخوف من شيء ما، او لا يكون بسبب الخوف، و لا يشترط في الابتعاد هنا أن يكره الانسان ما يبتعد عنه . اما قوله تعالى (منه تحيد) افاد اضافة معنى جديد الى الابتعاد والميل، وهو كراهة لقاء الموت، وهو من بدائع البيان القرآني.

المبحث الثاني/ لطائف حروف العطف في القرآن الكريم

حروف العطف من حروف المعاني التي لها اهمية كبيرة في ربط الجملة العربية، ولما لها من اداء وظيفي يضفي دلالات خاصة تتكشف من خلال السياق الواردة فيه.

ولقد قرر علماء اللغة العربية ان لكل حرف من حروف العطف معنى خاص به، ولكن الانتقال من حرف الى آخر في السياق القرآني، يتطلب النظر والبحث عن الدلالات التي تنتج عن ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * ﴾ (النازعات : ١-٥) .

الشاهد في الآية هو الانتقال من حرف العطف (الواو) في قوله تعالى (والنازعات غرقا) وما تلاها من الآيات الكريمة، الى حرف العطف (الفاء) في قوله تعالى (فالمدبرات امرا).

جاء في الكشاف " أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها. من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمرا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم " (الزمخشري،١٤٠٧هـ،ج٤،ص٦٩٢-٦٩٣) .

والذي يفهم من نص كلام الزمخشري أن طوائف الملائكة لها اختصاصات، و وظائف مختلفة ، فطائفة لنزع الارواح، وطائفة تخرج الارواح، وطائفة تسبح لتنفذ ما تؤمر به(الهتاري،٢٠١٤م،ص٣٦٤٦). يقول الدكتور عبد الله الهتاري " وهذه الاخيرة وقف عندها القرآن الكريم بالوصف فوصفها بأنها تسبح فتسبق فتدبر، فهي طائفة توصف بثلاث صفات متتابعة السبح والسبق والتدبير، لذلك عطف بين صفاتها هذه بـ (الفاء)، وعطف بين ذوات هذه الطوائف المختلفة بـ(الواو)"(الآلوسي،١٤١٥هـ،ج١٥،ص٢٢٣). وهنا يرى عبدالله الهتاري أن مجيء (الواو) لعطف الذوات، و(الفاء) لعطف الصفات، وهذا يدل أن الملائكة هنا طائفة واحدة لا طوائف مختلفة، ولكن تعددت الصفات التي تتصف بها(الهتاري،٢٠١٤م،ص٣٦٤٦).

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٤).

اختلف العلماء في دلالة حرف العطف(او) في الآية المباركة، هل هي بمعنى (بل) او بمعنى (الواو).

جاء في المحرر الوجيز" واختلف في معنى أَوْ هنا، فقالت طائفة: هي بمعنى الواو، كما قال تعالى: آثِماً أَوْ كَفُوراً [الإنسان: ٢٤] أي وكفورا" (ابن عطية،١٤٢٢هـ،ج١،ص١٦٦).

فالرأي الاول: فيها ان تكون بمعنى (و) ، كما تقدم في سورة الانسان ، فوصف الله الانسانَ بانه اثم و كفور.

والراي الثاني :أنْ تكون بمعنى (بل)، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (الصافات : ١٤٧).

وها ما ورد عن ابن عباس (رض) أنه كان يقول في تفسير قوله تعالى(او يزيدون) ان (او) بمعنى (بل) (الطبري،٢٠٠٠م،ج٢١،ص١١٥).

وجاء في اعراب القرآن وبيانه " (أَوْ) حرف عطف للتخيير أو للايهام أو للتنويع " (درويش، محيي الدين،١٤١٥هـ،ج١،ص١٢٧) .

وعلى هذا المعنى فقد يرد الشك على ذهن السامع ، وقالت فرقة " هي على بابها في الشك. ومعناه: عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم، أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة. وقالت فرقة: هي على جهة الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

أحب محمّدا حبا شديدا ... وعباسا وحمزة أو عليّا " (ابن عطية،١٤٢٢هـ،ج١،ص١٦٦) .

وهو مما لا يجوز أن يقال به على الله سبحانه وتعالى ، فلا يجوز الخطأ والنسيان ونسبتهما الى الله سبحانه وتعالى .

اما اذا قلنا إن (او) تعني (بل) وهي تفيد الابطال والانتقال كما يرى ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) (ابن يعيش،٢٠٠١م،ج٨،ص١٠٥)، وما تقدم من توضيح للآية المباركة وإنْ اختلف العلماء في بيان معنى (او) ، نجد ان هناك نكتة تعبيرية في هذا السياق، فالمعلوم ان الحجارة قاسية، ولذا شبه الله سبحانه قلوب الكفار بالحجارة، وعلى اعتبار ان (بل) تفيد الاضراب الانتقالي، فقد اصبح المعنى ان قلوب الكفار اقسى من الحجر، والسبب ان من سمع الحجة الالهية التي جاء بها الانبياء وتولوا عنها لهم قلوب لا يفقهونا بها، واذان لا يسمعون بها، وعيون لا يرون الحقيقة بها ،ولكن دلت الروايات ان كل شيء يسبح بحمد الله حتى الحجارة.

جاء في بحار الانوار:"عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام أنه دخل عليه رجل فقال له: فداك أبي وأمي، إني أجد الله يقول في كتابه "وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم " فقال: هو كما قال، فقال له: أتسبح الشجرة اليابسة؟ فقال: نعم، أما سمعت خشب البيت تنقض؟ وذلك تسبيحه، فسبحان الله على كل حال." (المجلسي،ج٥٧،ص١٧٧).

فيصف الله سبحانه وتعالى عجز تلك الفئة الكافرة عن بلوغ ادارك الحجارة لمقام الخضوع والخشوع لله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ (طه : ٦٠).

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن حال فرعون حين طلب من اعوانه الاسراع في جمع العدة ، والحشود والاعوان ، فأُستعمل في السياق حرف العطف (الفاء)، للدلالة على السرعة والتسلسل في لم شتات نفسه بعد ن تلقى صفعة مدوية من ذلك الشخص الذي تربى في كنفه، ويحسبه قريبا منه.

والامر الآخر لاستعمال حرف (الفاء)،هو للدلالة على ان فرعون كان جبارا في الارض، نافذ الامر قوي السلطان.

يقول السيد الطباطبائي:" قوله تعالى: "فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى" ظاهر السياق أن المراد بتولي فرعون انصرافه عن مجلس المواعدة للتهيؤ لما واعد ، والمراد بجمع كيده جمع ما يكاد به من السحرة وسائر ما يتوسل به إلى تعمية الناس والتلبيس عليهم ويمكن أن يكون المراد بجمع كيده جمع ذوي كيده بحذف المضاف والمراد بهم السحرة وسائر عماله وأعوانه وقوله: "ثم أتى" أي ثم أتى الموعد وحضره."(الطباطبائي،١٩٩٧م،ج١٤،ص٩١).

وكأن فرعون يؤخر مواجهة موسى (عليه السلام)، لما يعانيه من هزائم نفسية جعلته في حيرة من امره يتقدم حينا ويتأخر احيانا اخرى، فيأتي التعبير القرآني بحرف العطف(ثم) ليوضح هذا التردد ، والى هذه اللطيفة يشير ابو السعود ت (٩٨٢) هـ بقوله: " {فتولى فرعون} أي انصرف عن المجلس {فجمع كيده} أي ما يكاد به من السحرة وأدواتهم {ثم أتى} أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده وفي كلمة التراخي إيحاء إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد لأي وتلعثم ".(ابو السعود،ج٦،ص٢٤)

ثم ينتقل هذا التردد الى اعوان فرعون ، فهم يطيلون الوقت ، وقت مواجهة موسى (عليه السلام) ، كأن الفشل النفسي والهزيمة الروحية انتقلت اليهم من كبيرهم فرعون ، حتى تطلب منهم ان يجمعوا الجموع ويصفوا الصفوف:﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾(طه : ٦٤) فهم يخشون المواجهة الفردية مع موسى (عليه السلام) ، وما هذا الا ليكشف عما انطوت عليه نفوسهم من ذعر وقلق(الخضري،١٩٩٣م،ص١٦٤).

فسبحان الله عما يصفون، فتلك الحكمة لا تكون الا له وحده، حرف واحد نقل الفكر من حالة صورية جامدة، مواجهة بين ملك ظالم، ونبي مرسل الى تصوير الحالة النفسية التي كان يعيشها فرعون وجنوده، ومدى الرعب الذي كان يسود تلك اللحظة.

المبحث الثالث/ لطائف حروف النفي في القرآن الكريم

لغة القرآن الكريم لغة عالية المضامين تضع كل شيء موضعه، وهناك التفاتة شديدة نحو الفروق الدلالية التي يعطيها التناوب او التضمين او التحول بين حروف المعاني، ومن تلك المصاديق للتحول في حروف النفي.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف : ٣١).

وهنا يتحول السياق القرآني من النفي بـ (ما) في قوله تعالى (ما هذا بشرا) الى النفي بـ(انْ) في قوله تعالى (انْ هذا الا ملك)، ولم يستمر السياق على نمط واحد، وهذا فيه حكمة ان هؤلاء الوثنيين كانوا يقدسون الملائكة، فهي ارواح لطيفة عليا تجلب لهم الخير ، وتمن عليهم بالبركة ، فلما كانت الصفة الانسانية صفة هينة جاء معها (ما) ، وحين اردن اثبات صفة الملك ليوسف (عليه السلام) جاء الكلام اكثر تأكيدا بـ (ان ، الا).

جاء في تفسير الميزان:" وقوله: "ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم" نفي أن يكون يوسف (عليه السلام) بشرا وإثبات أنه ملك كريم، وهذا بناء على ما يعتقده المليون ومنهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفة هم مبادئ كل خير وسعادة في العالم منهم يترشح كل حياة وعلم وحسن وبهاء وسرور وسائر ما يتمنى ويؤمل من الأمور ففيهم كل جمال صوري ومعنوي، وإذا مثلوا تخيلوا في حسن لا يقدر بقدر، ويتصوره أصحاب الأصنام في صور إنسانية حسنة بهية.

(الطباطبائي،١٩٩٧م،ج١١،ص٨٠)

فاذا قلنا لم هذا التحول بين حرفي النفي تطالعنا آراء علماء اللغة ومنهم الدكتور فاضل السامرائي ، والذي يرى ان حرف النفي (ان) آكد من (ما) (السامرائي،فاضل،٢٠٠٠م،ج٤،ص٢٠٠)، ومن ثم يؤكد السامرائي ان ليس من حروف النفي ما آكد واقوى في النفي من (ان) بقوله : " وليست (ما) ولا غيرها من حروف النفي كذلك، فدل على هذا قوتها في النفي. ومما يدل على ذلك أيضا الاستعمال القرآني، فإنه يستعمل (إن) فيما فيه زيادة توكيد في النفي."

(السامرائي، فاضل،٢٠٠٠م،ج٤،ص٢٠١)

وان اقترانها بـ (الا) زادها قوة وتأكيدا ، فالقصر فيه قوة.

(السامرائي،فاضل،٢٠٠٠م،ج٤،ص٢٠٠)

وهذا التركيب مطرد بكثرة في هذا السياق كما يعبر عن ذلك الراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢هـ) بقوله " وأكثر ما يجيء يتعقبه إلا نحو : ﴿ إن نظن إلا ظنا ﴾ – ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ – ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ " (الراغب،١٤١٢هـ،ص٢٧) .

وهنا افاد القصر دلالتين هما النفي والاثبات معا(الهتاري،٢٠١٤م،ص٣٦٥)، فأثبت ليوسف (عليه السلام) الصفات الملائكية من ترفع عن الرجس والامتناع عن الانقياد الى ما كانت تدعوه اليه النسوة، من فعل الفاحشة، وغيرها من الامور التي من الممكن ان يقع فيها غيره من البشر فيوسف (عليه السلام) في مقام المخلَصينَ الذين لا ولاية للشيطان عليهم .

يقول السيد الطباطبائي: "ولعل هذا هو السبب في قولهن : "إن هذا إلا ملك كريم" حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه وجمال المنظر مع أن الذي فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه واعتدال صورته بل سمينه ملكا كريما لتكون فيه إشارة إلى حسن صورته وسيرته معا، وجمال خلقه وخلقه وظاهره وباطنه جميعاً"(الطباطبائي،١٩٩٧م،ج١١،ص٨٠).

ومن ذلك الانتقال من حرف النفي (ما) الى حرف النفي (لم) ، كما جاء في قوله تعالى ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ (مريم : ٢٠).

مريم (عليها السلام) تتحدث هنا عن نفسها، فتم نفي الجملة بـ (لم) ، لأن مريم (عليها السلام) تعرف نفسها، وتعرف كل المراحل التي مرت بها، فجاء الفعل المضارع منفيا بـ (لم) للدلالة على أن مريم منزهة عن الفحشاء في الماضي والحاضر والمستقبل، نفيا قطعيا من قبل عالم مطلع .

يشير الزركشي (ت ٧٩٤هـ) الى ذلك بقوله: " فإن مريم كأنها قالت: إني تفكرت في أزمنة وجودي ومثلتها في عيني: "لم أك بغيا" فهو أبلغ في التنزيه فلا يظن ظان أنها تنفي نفيا كليا مع أنها نسيت بعض أزمنة وجودها"(الزركشي،١٩٥٧م،ج٢،ص٣٨٠) .

وحين تحول الخطاب من الناس الى مريم (عليها السلام) ، وهم في مقام الاستهجان والانكار ، والاعتراض بعد عودة مريم (عليها السلام) مع ولدها ، فقال تعالى على لسانهم : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (مريم : ٢٨).

فهم يعلمون ان امها لم تكن (بغيا) في حياتها، وهذا شيء هم مطلعون عليه، ولذا جاء النفي بـ (ما)، و لأنهم لا يستطيعون الاطلاع على الازمنة كلها، فأطلاق النفي على العموم يعود الى قصور ذاتي في المتكلم، والا لأتوا بالنفي على صيغة الحدوث والتجدد، كما فعلت مريم (عليها السلام).

يقول الزركشي (ت ٧٩٤هـ)" وأما هم لما قالوا: {وما كانت أمك بغيا} ما كان يمكنهم أن يقولوا نحن تصورنا كل زمان من أزمنة وجود أمك وننفي عن كل واحد منها كونها بغيا لأن أحد لا يلازم غيره فيعلم كل زمان من أزمنة وجوده وإنما قالوا لها إن أمك اشتهرت عند الكل حتى حكموا عليها حكما واحدا عاما أنها ما بغت في شيء من أزمنة وجودها " "(الزركشي،١٩٥٧م،ج٢،ص٣٨٠).

وفي هذا المقام لربما يسأل سائل عن الفرق بين الاداتين (ما) و(لم) في الاستعمال .

فالفرق أن (لم) تدخل على الفعل المضارع (الانصاري، ابن هشام، ٢٠٠١م،ص١٧٨)،وتقلب معناه الى الماضي لتفيد نفي الزمن الماضي بكل تفاصيله، اما اداة النفي (ما) تدخل على الفعل الماضي لتنفي حصول حدث ما في الزمن الماضي.

وقد فرق الدكتور فاضل السامرائي بين الاداتين من وجوه عدة منها

" ولكن ثمة فروقا بينهما من نواح أهمها:

١ – ان الماضي المنفي بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال، وأما (لم) فليست مقيدة بزمن من أزمنة المضي.

٢ – إن (ما) آكد من (لم) وذلك أنها تقع جوابا للقسم كما ذكرنا بخلاف (لم).

قال تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقال: ﴿يحلفون بالله ماقالوا﴾ [التوبة: ٧٤]، والقسم توكيد وكذلك جوابه.

٣ – يخيل إلي أن هناك فرقا بين دخول (ما) على الماضي، ودخول (لم) على المضارع من ناحية أخرى، وهي أن الماضي يدل على أن الأمر قد انقضي، وأما المضارع فإنه قد يدل على التكرار، والتجدد والتطاول، فقولك (كتب) يدل على انتهاء الحدث، وانقضائه وقولك (يكتب) يدل على تجدد الحدث واستمراره، فإذا دخلت (ما) على الماضي دل على انتفاء الحدث بصيغة المضي، وإذا دخلت (لم) على المضارع دل على انتفاء الحدث في المضي، لكن بصيغة التجدد والاستمرار" (السامرائي ،فاضل،٢٠٠٠م،ج٤،ص١٩٣).

والذي يتأمل ما تقدم من كلام فاضل السامرائي، يتبادر الى ذهنه مباشرة الحكمة الالهية في الانتقال من اداة الى اداة، فان النفي المتجدد المستمر الذي صيغ بأداة النفي (لم) وجد للدفاع عن السيدة مريم (عليها السلام)، فالشاهد على براءة مريم (عليها السلام) هو الله سبحانه وتعالى وهو المطلع على كل امورها واحوالها نفى عنها الرجس نفيا قطعيا لا لبس فيه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن ابي الحديد (ت٦٥٦هـ)، (١٩٥٩م) ،شرح نهج البلاغة ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط ١، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي وشركاه .

٢. ابن ابي الوحش ، عبد الله بن مري (٥٨٢هـ) ،(د.ت)، في التعريب والمعرب ، تح د. ابراهيم السامرائي ،بيروت : مؤسسة الرسالة .

٣. ابن الحاجب، جمال الدين(ت ٦٤٦هـ) ،(٢٠١٠م)الكافية في علم النحو، تح الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، ط١،القاهرة :مكتبة الآداب .

٤. ابن القطاع ، علي بن جعفر بن علي (ت٥١٥هـ)، (١٩٨٣م)، كتاب الافعال، ط١،عالم الكتب.

ابن دريد ، محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ) ، (١٩٨٧م)جمهرة اللغة ، ، تح رمزي منير البعلبكي، ط١ ، بيروت : دار العلم للملايين .

٥. ابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ)،(٢٠٠٠م)، المحكم والمحيط الاعظم ، تح عبد الحميد هنداوي ، ط ١ ، بيروت :دار الكتب العلمية.

٦. ابن فارس، احمد (ت ٣٩٥هـ) ، (١٩٨٦م)، مجمل اللغة ،تح زهير عبد المحسن سلطان، ط ٢ ،بيروت : مؤسسة الرسالة .

٧. ابن منظور (ت ٧١١هـ)، (١٤١٤هـ) ،لسان العرب، ط٣ ،بيروت : دار صادر .

٨. الازهري، ابو منصور (ت ٣٧٠هـ) ، (٢٠٠١م) ، تهذيب اللغة ، تح محمد عوض مرعب ،ط١، دار احياء التراث العربي .

٩. الاصفهاني، الراغب (ت٥٠٢هـ) ،(١٤١٢هـ)،المفردات في غريب القرآن ، تح صفوان عدنان الداوودي ،ط ١،دمشق – بيروت: دار القلم ، الدار الشامية .

١٠. الالوسي، شهاب الدين، (١٤١٥هـ) ،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تح علي عبد الباري عطية ،ط ١،بيروت :دار الكتب العلمية .

١١. الانصاري، ابن هشام (ت ٧٦١هـ) ، (٢٠٠١م)،شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ط ١، بيروت : دار احياء التراث العربي .

١٢. بوجليع ، صلاح بن عبد الله، (١٤٤٦هـ)،الوافي في معاني الحروف، ط١، الاحساء: مكتبة الملك فهد الوطنية .

١٣. بودانة ، طه الامين ، (٢٠١٨م) ،حروف المعاني وتوجيهاتها الدلالية في القرآن الكريم ، التعليمية ، المجلد الخامس ، العدد ١٣ .

١٤. البيضاوي ، ناصر الدين (ت ٦٨٥ هـ) ،(١٤١٨هـ)،انوار التنزيل و اسرار التأويل، تح محمد عبد الرحمن المرعشلي ،ط١، بيروت : دار احياء التراث العربي .

١٥. الثعالبي ، ابو منصور (ت ٤٢٩هـ) ، (٢٠٠٢م)، فقه اللغة وسر العربية ، تح عبد الرزاق المهدي ، ط٢ ،لبنان: دار احياء التراث العربي .

١٦. الثعالبي ،محمد بن مخلوف(٨٧٥هـ)،(١٤١٨هـ) ،الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، تح الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ط١، بيروت: دار احياء التراث العربي

١٧. الجبوري، عبير محمد ،حروف المعاني في القرآن الكريم نماذج مختارة مجلة العلوم الاسلامية ، العدد ٣١.

١٨. الجمل ، سلمان (ت١٢٠٤هـ)، (١٩٢٩م)حاشية الجمل على الجلالين المسماة بالفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، مصر: مطبعة التقدم العلمية .

١٩. الجوزية، ابن قيم (ت ٧٥١هـ) ، (١٤٠٧هـ) ،التفسير القيم ، ط١، بيروت :دار ومكتبة الهلال .

٢٠. الحازمي ، احمد بن عمر، (٢٠١٠م)، فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (للعلامة محمد بن آب القلاوي التواتي) ،ط١،مكة المكرمة: مكتبة الاسدي .

٢١. حسن ، عباس ، (د.ت) ،النحو الوافي ، ط١٥ ، دار المعارف .

٢٢. الخضري، محمد امين ، (١٩٩٣م) ،من اسرار حروف العطف في الذكر الحكيم ، ط ١، القاهرة :مكتبة وهبة .

٢٣. درويش ، محيي الدين (ت ١٤٠٣هـ) ، (١٤١٥هـ)،اعراب القرآن وبيانه ، ط٤،- دمشق – بيروت: دار ابن كثير .

٢٤. الدينوري، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ،(د.ت)، تأويل مشكل القرآن ، تح ابراهيم شمس الدين ، بيروت :دار الكتب العلمية .

٢٥. الرازي ، فخر الدين (ت ٦٠٦ هـ) ، (١٤٢٠هـ) مفاتيح الغيب او التفسير الكبير ،ط٣ ،بيروت: دار احياء التراث العربي .

٢٦. الزجاجي ، ابو القاسم (ت ٣٧٣هـ)،(١٩٩٦م) ،الايضاح في علل النحو ، تح الدكتور مازن مبارك ،ط١، بيروت: دار النفائس .

٢٧. الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله(ت ٧٩٤هـ) ،(١٩٥٧م)، البرهان في علوم القرآن ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط١ .

٢٨. الزمخشري ، جار الله (ت٥٣٨ هـ) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي .

٢٩. السامرائي ، فاضل ،(٢٠٠٠م)،معاني النحو،ط١ ،الاردن: دار الفكر للطباعة والنشر .

٣٠. الشيخ ، شبر الفقيه ، (٢٠٠٨م) ،الدلالة القرآنية في فكر محمد حسين الطباطبائي (الميزان انموذجا) ،ط١ ،،بيروت: دار الهادي .

٣١. الطباطبائي ، محمد حسين ، (١٩٩٧م) ،الميزان في تفسير القرآن ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات .

٣٢. الطبراني ، ابو القاسم (ت٣٦٠هـ) ، (د.ت)،المعجم الكبير ، تح حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢ ،القاهرة : مكتبة ابن تيمية .

٣٣. الطبري ، ابو جعفر(ت٣١٠هـ) ، (٢٠٠٠م)،جامع البيان في تأويل القرآن ، تح احمد محمد شاكر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة .

٣٤. طنطاوي، محمد سيد ، (١٩٩٧-١٩٩٨ م) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ط١ ، الفجالة ، مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

٣٥. العمادي ، ابو السعود (ت ٩٨٢هـ)، (د.ت) تفسير ابي السعود ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ، بيروت :دار احياء التراث العربي .

٣٦. عواد ، محمد حسن ، (١٩٨٢م) ،تناوب حروف الجر في القرآن الكريم ، ط١ ، الجامعة الاردنية : كلية الآداب .

٣٧. عيد، محمد (١٩٧١م) ،النحو المصفى ،ط١ ، مكتبة الشباب .

٣٨. فاضل ، محمد نديم ، (٢٠٠٥م) ،التضمين النحوي في القرآن الكريم ، ط١، المدينة المنورة دار الزمان، المدينة المنورة .

٣٩. الفراء ، ابو زكريا (ت ٢٠٧ هـ) ، (د.ت) معاني القرآن ، تح أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار و عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط١ ، مصر: دار المصرية للتأليف والنشر .

٤٠. الفيومي ، احمد بن محمد (ت٧٧٠هـ)، (د. ت) ،المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، بيروت :المكتبة العلمية .

٤١. القرطبي ، ابو محمد (ت٤٣٧هـ) ، (٢٠٠٨م) ،الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ، تح مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا

والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي ،مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة،ط١ .

٤٢. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود ابو منصور (ت٣٣٣هـ) ، (٢٠٠٥م) ، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ، تح د. مجدي باسلوم ،ط ١، لبنان : دار الكتب العلمية بيروت .

٤٣. المحاربي ، ابن عطية (ت ٥٤٢هـ)،(١٤٢٢هـ) ،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية .

٤٤. المرادي ، بدر الدين (ت٧٤٩هـ)، (١٩٩٢م) ، الجنى الداني في حروف المعاني، تح د. فخر الدين قباوة و الاستاذ محمد نديم فاضل ،ط ١، بيروت :دار الكتب العلمية .

٤٥. الميداني ، عبد الرحمن حبنكة ،(١٩٩٦م)،البلاغة العربية ، ط١ ،دمشق : دار القلم .

٤٦. الميداني، عبد الرحمن حنبكة ،(١٩٩٦م)،البلاغة العربية ، ط ١ ،دمشق: دار القلم .

٤٧. النحوي، ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) ، (د.ت)،شرح المفصل ، بيروت ، القاهرة :عالم الكتب .

٤٨. الهتاري ، عبد الله ، (٢٠١٤م) ،تحولات حروف المعاني في السياق القرآني، اسيوط :المجلة العلمية ، كلية اللغة العربية اسيوط ، العدد الثالث والثلاثون ، الجزء الخامس .

٤٩. الهلال ، محمد ،(٢٠٢٢م) ،تفسير القرآن الثري الجامع(في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي)،ط ١، دمشق : دار المعراج، ودار جوامع الكلم.